

المثل الصالح في القرآن



«الإخلاص الإبراهيمي»: في القرآن الكريم دعاءٌ لنبِيِّ إِبْرَاهِيمَ (ع) إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، يَقُولُ فِيهِ: (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَدِّسْ لِي دُعَاءِي * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) (إِبْرَاهِيمَ/ 41-40)، يَدْعُو إِبْرَاهِيمَ (ع) بِهَذَا الدُّعَاءِ عِنْدَمَا رَكَعَ قَوَاعِدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِي مَكَّةَ، حَيْثُ يَتْرِكُ أَهْلَهُ هُنَاكَ وَيَفَارِقُهُمْ. وَقَدْ انْفَتَحَ عَلَى اللَّهِ بِعَقْلِهِ وَقَلْبِهِ لِيَدْعُوهُ فِي خُصُوصِيَّاتِهِ وَفِي كُلِّ الْقَضَايَا الْعَامَّةِ الَّتِي يَفْكَرُ بِهَا. فَكَانَ يَسْتَوْلِي عَلَى تَفْكِيرِهِ بِأَنْ يَجْعَلَهُ اللَّهُ مُقِيمَ الصَّلَاةِ. فَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ الَّذِي عَرَفَ اللَّهُ مَعْرِفَةً وَاسِعَةً شَامِلَةً، مُنْطَلِقَةً مِنَ الْفِكْرِ وَالتَّأَمُّلِ وَمِنَ اللَّطْفِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ. وَكَانَ (ع) يَشْعُرُ وَمِنْ شِدَّةِ صَلَاتِهِ بِاللَّهِ وَقَرْبِهِ إِلَيْهِ بِالذِّمَّةِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا، فَهُوَ يَتَحَدَّثُ مَعَ اللَّهِ كَمَا يَتَحَدَّثُ الْحَبِيبُ لِحَبِيبِهِ، وَلِذَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَدِّسْ لِي دُعَاءِي * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) (إِبْرَاهِيمَ/ 41-40)، فَإِيْمَانُ الْحَسْبُ إِلَى جَانِبِ الْغَيْبِ يُعْطِي الْقَلْبَ اسْتِقْرَارًا وَطَمَآنِينَةً وَسُكُونًا، بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُفْسَحَ الْمَجَالُ لِأَيَّةِ خَاطِرَةٍ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَهْمِ وَالشُّكِّ أَنْ تَدْخُلَ إِلَى الْقَلْبِ. وَيَحَدِّثُنَا اللَّهُ تَعَالَى عَنِ إِبْرَاهِيمَ (ع) (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَمُوتُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَكْفُرُ الْمُشْرِكِينَ) (النحل/ 120)، وَهُوَ النَّبِيُّ الَّذِي أَسْلَمَ بِكَلِمَاتِهِ إِلَى اللَّهِ (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ)

(البقرة/ 131)، فلم يكن عنده لنفسه شيءٌ، فكلُّ ما عنده ﷻ سبحانه، حتى أن القرآن أخبرنا بأنَّ صفة المسلمين التي نتصف بها، إنَّما انطلقت من إبراهيم (ع) (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَدِيلُ) (الحج/ 78)، فهو خطُّ لكلِّ مَنْ جاء بعده من المسلمين والمؤمنين في كلِّ الديانات (هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَدِيلُ)، وفي ذلك ردٌّ على اليهود والنصارى الذين ادَّعوا انتساب إبراهيم إليهم (مَا كَانَ إِبرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا) (آل عمران/ 67). والقرآن عندما يثير الحديث عن إبراهيم (ع) فلكي يوحى بالقيمة الكبيرة لإبراهيم عند ﷻ (وَآتَىٰ خَدَّيْهِ الْإِسْمَ إِبرَاهِيمَ خَلِيلًا) (النساء/ 125)، وتلك صفةٌ عظيمةٌ لإبراهيم (ع) أن يتخذه سبحانه خليلًا له. طلباً للصفاء والنقاء: وهنا يقابل إبراهيم ذلك بحبته العظيمة ﷻ تعالى فيطلب من ربِّه (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ) (إبراهيم/ 40)، باعتبار أن الصلاة تمثِّل مظهر العبودية الخالصة ﷻ سبحانه، حيث يركع ويسجد الإنسان فيها ويقف بين يدي ﷻ بكل الإستسلام. فالسجود يمثِّل المظهر الحيِّ للخضوع الكامل، حيث يطرح الإنسان نفسه أمام ﷻ بعيداً عن أيِّ عنفوان وكبرياء. ولذا، ورد في المأثور أنَّ الإنسان أقرب ما يكون إلى ﷻ وهو ساجد، ومن هنا يُستحب للإنسان أن يطلب حوائجه من ربِّه عند السجود. وقد ورد عن النبي (ص) في خطبته التي يستقبل بها شهر رمضان "إنَّ ظهوركم ثقيلة فحفَّفوا عنها بطول سجودكم، فإنَّ ﷻ أقسم بعزِّته ألا يعذب الساجدين يوم يقوم الناس لربِّ العالمين" والصلاة أيضاً هي معراج روح المؤمن إلى ﷻ، فنحن لا نخرج إلى ﷻ بأجسادنا، بل بأرواحنا، ولذلك يجب أن نعيش في الصلاة حالة التوجُّه الكامل إلى ﷻ، بعيداً عن أحقادنا وضعائنا، لنفتح له قلوبنا، نشكو إليه همومنا ولنغسلها من كلِّ الأدران والموبقات، حتى تكون صلاتنا الحصن الذي نلجأ إليه، الذي يصدُّ الفحشاء والمنكر عن الدخول إلى هذه القلوب (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَذْهِبُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَتَذْهِبُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (العنكبوت/ 45)، وقد ورد أنَّ الإنسان إذا صلَّى صلاة مقبولة، فإنَّه يُغفر له ما قبلها من ذنوب (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْهِ النَّهَارَ وَزُلْفَاهُ مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ) (هود/ 114)، وقد جاء في بعض التفاسير أنَّ الحسنات هي الصلوات التي تُذهب ما قبلها من السيئات. ونلاحظ أنَّ النبي (ص) قال: "حُذِّبَ إليكم من دنياكم ثلاث، الطيب والنساء وقرَّة عيني الصلاة" فذكر الأمرين الأولين بشكل طبيعي، وعبَّر عن الصلاة بقرَّة العين، أي أنَّ هذه الصلاة التي نتوجَّه فيها إلى ربنا في هذه الدنيا هي قرَّة العين التي يشعر فيها الإنسان بالسعادة، وبعبارة أخرى، تقرُّ العين بالصلاة، حيث تنفتح نفس الإنسان على خالقها فترتاح وتطمئن بما تشعر فيه من سعادة ورضى. وعلى هذا، فالذين لا يصلُّون هم الذين يعيشون ظلمة

العقل والروح والقلب والحياة، فهم في ظلماتٍ من أوهامهم وأنانياتهم وكبرياتهم وجحودهم، ولو نفذت إلى داخلهم لرأيت أن هناك ظلماتٍ فوقها ظلمات، لأنهم لم يستضيئوا بنور الله، ولم يعيشوا إشراقه المحبة والنعمة والمعرفة به سبحانه، لهذا، من الصعب أن تجد صفاء الخير في من لا يصلّي، لأن الصفاء والنعمة لا يحصلان عند الإنسان إلا من خلال التوجّه إلى الله تعالى. إبعاداً لذريتنا عن النار: وهذا ما طلبه إبراهيم (ع) من ربه بأن يجعله مقيم الصلاة (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) فهو (ع) يطلب كذلك من الله أن يجعل ذريته ممن يقيمون الصلاة. ودعاء إبراهيم يعطينا إحياءً مهماً وأساسياً في مسألة علاقتنا وعلاقة ذريتنا بالله تعالى، فنحن عندما نفكّر بمستقبل أولادنا، علينا أن نفكّر بمستقبل ولدنا أو ابنتنا، ومن حقنا ذلك بل من واجبنا، ولكن أوّل خطوات هذا المستقبل، هو أن نفتح عقل الواحد منهم وقلبه على الله، بحيث نعرّفه ربه، ونركّز علاقتنا به سبحانه من خلال الصلاة. فكما نحن مسؤولون عن أنفسنا في خطيئة البعد عن النار كذلك نحن مسؤولون عن أولادنا في ذلك (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ...) (التحریم/ 6)، ولذا، لا بد للإنسان أن يربّي ولده على الصلاة حتى يكون من الذين يتحرّكون في اتجاه إحياء الصلاة، فيعيش مع المؤمنين يوم القيامة وهم في الجنة الإطالة على من في النار وسؤالهم (فِي جَنّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشّٰفِعِينَ) (المدثر/ 40-48). الأمل بقبول الدعاء: وبعد ذلك يطلب إبراهيم (ع) من ربه بعد أن يجعله وذريته من المصلين (وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) فإنّي محتاج إليك في كشف همومي وغمومي وإزالة المشاكل والصعاب من طريقي. وهذا ما يتوجّه فيه المؤمن إلى الله على الدوام متوسلاً إليه مستغيثاً به، لأنّه ثقته به لا يغيره (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّٰعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة/ 186)، ولأنّ المؤمن لا يخرج نفسه عن حدّ التقصير، فإنّه يطلب من ربه ألا تحول ذنوبه بينه وبين استجابة الدعاء، فيلجّ عليه بالطلب ليرحمه ويلطف به ويقضي حوائجه. ويتجدّد الدعاء الإبراهيمي (رَبِّ نَدَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) علماً بالله تعالى أن نستغفر لوالدينا ونطلب لهما الرحمة لما قدّمناه من تضحية وبذل في سبيل رعايتنا، وقد جعلهما الله سرّاً وجودنا بشكل مباشر بعد أن كان هو سرّاً الوجود كلاًه (رَبِّ نَدَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) ولله المٌؤمّنون (يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) قد يختلف

المؤمنون مع بعضهم البعض، في أمور الدنيا أو في أمور الفكر، ولكنّ ﷻ تعالى لا يريد لهم أن يحملوا الحقد في نفوسهم وقلوبهم على بعضهم البعض، لأنّ المشاكل التي قد تطرأ بينهم قد تأتي من خلال وساوس الشيطان وتهاويله. وهذا ما يجب أن نتنبه له، فإذا ما اختلف مؤمن مع مؤمن لأنّه يخالفه في نظرتة الفكرية أو الاجتماعية، أو في أسلوبه، وعاش الحقد بينهما، فإنّهما ينشغلان ببعضهما بحيث يدمران واقعهما، والعدو واقفٌ يقهقه ضاحكاً من حولهما.

ومن هنا، علينا أن نحمل بعضنا على الأحسن دائماً لا على الأسوأ، لأنّ الشيطان يقف في دروبنا (.. لأَوْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ... (الأعراف/ 16-17)، سأشغل لهم فكرهم وهم يصلّون، سأُريك واقعهم حتى وهم يدعون إلى ﷻ.. هذه روحية الشيطان التي يجب أن نُسقطها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) (الحجرات/ 12)، والمؤمنون الذين هم أهل الجنّة، صفتهم (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَيَّ سُرُورٍ مُتَّقَاتٍ بِلَايِنٍ) (الحجر/ 47)، وينبغي على الإنسان أن يجاهد نفسه ويحاسبها، وينظّف عقله وقلبه، لأنّ الشيطان سوف يتحرّك بكلّ أساليبه ووسائله وخيله ورجله وأشياعه وأتباعه في سبيل أن ينحرف بنا عن الخطّ المستقيم، ويمزّق العلاقات بين المؤمنين التي إذا تمزّقت صار بعضهم يشك في بعضه ويسبّه ويتهمه ويعطّل حركته. وبهذا يتلوّث القلب ويتسخ ويحقق الشيطان أمانيه وآماله من خلال حقدنا وبغضائنا. ولذلك، نحن بحاجة إلى أن نغسل قلوبنا من الحقد والكيد لبعضنا كما نهتم بغسل ثيابنا. وهذا أبو العلاء المعري يقول: ثوبيّ محتاجٌ إلى غاسلٍ *** وليتَ قلبي مثله في النقاء فلنتعلّم أن نفتح قلوبنا للمؤمنين بحيث نستشعر أنّ إيمانهم يمثّل القيمة العالية في واقعنا، لا أن ننساق وراء غرائزنا ونتحدّث بما لا يرضاه ﷻ، فنفضّل الكافرين على المؤمنين، تماماً كما يقول البعض، المؤمنون ليس لهم دين، أخطأوا في كذا وفعلوا كذا، فيمكن أن يكون الكافرون أفضل منهم. بعض الناس يعيشون هذا المنطق غير السليم، وﷻ تعالى يقول: (أَفَنَدَّعَوْا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَآلِ مُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (القلم/ 35-36)، ربما كانت هذه المسألة غائبة عن أذهاننا ونحن ننال من بعضنا، ولذا، فإنّ إطلاق الإتهامات وتحكيم الظن السيّء والحكم بغير علم، أمرٌ لا يجوز من الناحية الشرعية، وﷻ تعالى سيحاسب من يعيش هذه الذهنية. ومن هنا، فإنّ الواجب يحتّم علينا أن نجعل دروبنا دروباً آمنة، وعلاقاتنا علاقات منفتحة وواعية، حتى نملك الموقف الموحّد الذي نستطيع بواسطته أن نقف أمام أعدائنا وأعداء ﷻ من موقع واحد وموقف واحد، وقد قال ﷻ تعالى: (إِنَّ زَمَّامَ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) (الحجرات/ 10)، حتى نحمي

ساحتنا ونمنع اختراقها والقضاء عليها، وهذا لا يكون إلا من خلال محبة وقوة الإيمان بين المؤمنين. ومما جاء في الرواية أن "أحد أصحاب الإمام الصادق (ع) رآه صاحباً له يدعو في يوم عرفة وعيناه كعلقتي دم من الإحمرار بسبب البكاء، وبعد أن انتهى من دعائه، قال له: رأيتُ مظهراً حسناً فيك، فأتمنى أن يحصل لي هذا الخشوع، فلعلك دعوت لنفسك فيما يُهمُّك. قال: لا وإني، ما دعوت إلا لإخواني، وقد قال سيدي الإمام الصادق (ع): "إن المؤمن إذا دعا لأخيه بظهر الغيب، قالت له الملائكة: ولك مثلاه" فدعاؤك لأخيك بأن يغفر الله ذنبه ويقضي حوائجه ويخفف عنه أحزانه، فإن ذلك يدخل المحبة إلى قلبك، وتشتدّ العلاقة بينك وبينه. فلنحاول أن نقتدي بسيرة الأنبياء (ع) والأئمة من أهل البيت (ع) ولنرفع أيدينا إلى الله كما رفع إبراهيم (ع) يديه (رَبِّ زَنَا عَفِّرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) اجعلنا نقف بين يديك مغفوراً لنا، حتى لا تُثقل علينا الحساب، ولا نواجه في الآخرة الخوف من عذابك ونارك.. هذا هو دعاء إبراهيم (ع) ودعاء كل مؤمن، فهل لنا أن ننطلق في هذه الإتجاه؟ المصدر: كتاب من عرفان القرآن